

ضوابط التفكير الصوتي عند الخليل في مقدّمة كتاب العين

م.د. خالد حازم عيدان جاسم الحديدي
جامعة الموصل/ كلية الآداب/ قسم اللغة العربية
d.khalidhazem@gmail.com

الملخص

هذا البحث يسلط الضوء على الضوابط الصوتية التي اعتمدها الخليل بن أحمد الفراهيدي رحمه الله تعالى (ت ١٧٥هـ) في مقدّمة كتابه العين من خلال جملة الأمور التي عرضها في تلك المقدّمة، والتي تعدّ مفتاحاً للوصول إلى المادة اللغوية داخله من جهة، وبيان الخصائص الصوتية للغة العربية من جهة أخرى. ورسم البحث تلك الضوابط على شكل نقاط عامة متضمّنة ضوابط فرعيةً يجمعها قاسمٌ مشتركٌ في معالجتها للجوانب الصوتية الواردة في تلك المقدّمة، وكلّ ذلك بالاعتماد على آرائه وأفكاره التي بنّاها وهو يبيّن منهجه في الكتاب.

الكلمات المفتاحية: علم اللغة، الأصوات، التفكير الصوتي، الخليل، مقدّمة العين

The speculations of phonetic thinking by Al_Farahidi in the introduction of his book Al_Aeen

Abstract

The research sheds lights on the speculations of phonetic thinking used by Al-Farahidi (175 H) in The introduction of his book Al-Aeen. Through a number of issues which are considered as a way to get its linguistic materials. In addition, showing the speculations will be shown as points united by a common factor to tackle the mentioned phonetic issues by depending his opinions and thoughts in this book.

Key words: Linguistics, Phonetic, Phonetic thinking, Al-Khaleel, The introduction of Al-Aeen.

المقدمة:

لا يختلف اثنان من أهل العلم على ريادة الخليل بن أحمد رحمه الله تعالى (ت ١٧٥هـ) في درس الصوتي العربي، وأن آراءه اللغوية جاءت مبنوثة في كتب تلاميذه، لا سيما كتاب سيبويه، غير أن كتابه العين تضمّن -منفرداً- عبقرية الصوتية في مقدمة ربما تُعدّ دستوراً لقوانين ذلك المستوى اللغوي، فجاءت بارائهُ فيها لتكون مرجعاً للدارسين، تناولتها دراسات من نواحٍ عدّة بين النقد والتشكيك والتعليل والتوضيح وغيرها، قديماً وحديثاً؛ إلا أن أحداً من الدارسين -بحدود ما اطّلع عليه البحث- لم يقف على أصول هذه القوانين وإيضاح ضوابطها التي ضمّنها في تلك المقدّمة ورسم من خلالها أهدافه المعجمية التي من أجلها أقام كتاب العين.

وهذا البحث تجربة أشبه بمحاورة أصولية لفلسفة الخليل من خلال استنطاق النصوص الواردة في مقدّمة كتاب العين لإبراز تلك الضوابط الصوتية. وقد انتفع البحث كثيراً من جهود الدارسين لهذه المقدّمة؛ كونها كشفت له أسرارها، ويسرت له الإحاطة بمقاصدها.

وجاءت مفاصل البحث على النحو الآتي: مدخلٌ بيّن معنى الضابط لغةً واصطلاحاً، ومكانة الضوابط الصوتية بالنسبة للعمل المعجمي الذي قام به الخليل، كما تطرّق البحث في هذا المدخل إلى أهميّة هذا المستوى اللغوي بالنسبة للعمل ككل. وتضمّن أيضاً ثلاثة ضوابط دار كل واحد منها حول مسألة من تلك الضوابط وما يتفرّع إليه بالاعتماد على ما ورد في تلك المقدّمة.

وانتهى بخاتمة موجزة لخصّت أهمّ ما جاء من نتائج داخل هذا البحث. وقبل هذا كلّه أرجو من الله تعالى أن يتقبّل هذا العمل خالصاً لوجهه وينفع به عباده، ويجعلنا ميسرين لخدمة لغة كتابه العزيز، والله من وراء القصد.

المدخل:

الضابط لغةً: هو اسم فاعل من الجذر (ض ب ط) وهو أصلٌ يدلُّ على "لزوم شيءٍ لا يفارقه في كلّ شيء" (١)، ويذهب المعنى الاصطلاحي إلى أن: "العالمُ فيما يختصّ ببابٍ وقصد به نظم صور متشابهة يُسمى ضابطاً، وإن شئت قلت: ما عمّ صوراً، فإن كان المقصود من ذكر القدر المُشترك الذي به اشتركت الصور في الحكم فهو المُدرِك، وإلا فإن كان القصد ضبط تلك الصور بنوع من أنواع الضبط من غير نظر في مأخذها فهو الضابط وإلا فهو القاعدة" (٢). فيكون تعريف الضابط " أمرٌ كلّيٌ يختص ببابٍ واحد يقصد به نظم صورٍ متشابهة" (٣). وبناءً على ما تقدّم سيقف البحث على تلك الصور الصوتية المتشابهة في مقدّمة كتاب العين.

إنَّ الفكرة الأساس التي من أجلها ألف الخليل رحمه الله تعالى كتاب العين - كما لا يخفى على الدارسين - هي لَمْ شتات اللغة، وجمعها في مؤلفٍ يشمل كلَّ ما تكلمت به العرب، إذ جاء في مقدِّمة كتاب العين "هذا ما ألفه الخليل بن أحمد البصري رحمة الله عليه من حروف أ. ب. ت. ث. مع ما تكلمت به، فكان مدار كلام العرب وألفاظهم فلا يخرج منها عنه شيء" (٤). وكان له ذلك من خلال أمرين: الأولُ عرضُ الوجه اللفظي المراد على كلام العرب، فما كان قد ورد في كلامهم من خلال الأصول اللغوية سُمِّيَ بالمستعمل وإلا فهو المهمل، قال د. عبد الله درويش عن عمل الخليل في الأصول اللغوية حول الأوجه المحتملة في نظام التقليلات: "من ناحية الواقع فقد تكون كلها مستعملة، وقد تكون كلها مهملة، وقد يكون بعضها مستعملاً والبعض مهملاً. وتسمية ما نطقت به العرب فعلاً بالمستعمل، وما لم تنطق به العرب بالمهمل هي من وضع الخليل بن أحمد" (٥). أمَّا الأمر الآخر الذي اعتمده الخليل فهو عرض الأصل اللغوي على القوانين الصوتية التي ابتكرها بعد أن ربَّب الأحرف الهجائية ترتيباً صوتياً. قال د. عبد الله درويش: "وقد يكون اللفظ مهملاً ليس لأنَّ العرب لم تستعمله فقط؛ بل لأنَّ القوانين الصوتية لأنسجام المفردات العربية تأبى احتمال وقوعها" (٦). والذي يتفحص الدرس الصوتي الذي ورد في مقدِّمة كتاب العين يتضح له أنَّ ذلك الجانب عنده لم يكن الهدفُ منه تقديمَ دراسةٍ شاملةٍ عن الأصوات من أجلها ولذاتها؛ بل جاءت تلك المقدمة الصوتية لترسم ضوابط وقوانين تُيسِّر له غايته المعجمية في تحديد ما ينبغي التعرض له من عدمه على وفق تلك الضوابط، وهو ما دفع بعض الدارسين إلى القول: "وهكذا يتضح لنا من خلال ما تقدم أنَّ ما في مقدِّمة كتاب العين ليس دراسةً شاملةً أو خاصةً بالأصوات لذاتها، بل هي مسوقة لغاية معجمية حدَّدت ما ينبغي التعرض له دون غيره، وأنَّ معظم ما جاء، لإيضاح الأبنية وخصائص تركيبها من الوجهة الصوتية الشكلية" (٧). وقال في موطن آخر عن الدرس الصوتي عند الخليل: إنَّه "لم يُشير إلى علم الأصوات عنواناً أو باباً أو جزءاً من عمله في المقدِّمة... ويُفسَّر ذلك... انتفاء القصد لتأليف كتاب خاص بالأصوات، فالخليل سعى إلى تقديم مادة صوتية تصلح لبناء المعجم" (٨). وهذا يُفسِّر لنا إهمال الخليل كثيراً من المسائل الصوتية المهمة في هذا المجال اللغوي؛ لكونها لا تعني لغايته الشيء الكثير، ومنها صفات الأصوات كالجهر والهمس والشدة والرخاوة وغيرها التي نجدها عند تلميذه سيبويه (٩)، في حين صبَّ اهتمامه على الجانب المخرجي وترتيب الأصوات، فمعظم ما ورد من الصفات في هذه المقدِّمة جاءت توضيحاً لآليات النطق حين الحديث عن المخارج أو حين شرح صفتي الذلاقة والإصمات وما يلحق بها من قواعد التشكيل الصوتي" (١٠).

وكانت تلك القوانين الصوتية التي عرضها الخليل واعتمدها في جمع اللغة قائمة على مجموعة ضوابط، منها الضوابط العامة وأخرى فرعية يمكن أن تندرج في إطار الضوابط العامة، وهذه الضوابط هي مدار هذا البحث، ويرى البحث أنها يمكن أن تكون على النحو الآتي:

أولاً: ضابط السهولة

يعدُّ ضابط السهولة من أهمِّ الضوابط اللغوية بصورة عامة والصوتية على وجه الخصوص، والتي لها الأثر الكبير في بناء الكلمة من جهة وتطور اللُّغة من جهة أخرى، إذ إنَّ اللُّغة تميل "في تطوُّرها نحو السهولة والتيسير، فتحاول التخلُّص من الأصوات العسيرة، وتستبدل بها أصواتاً أخرى لا تتطلب مجهوداً عضلياً كبيراً كما أنَّها تحاول أن تتفادى تلك التقريعات المعقدة، والأنظمة المختلفة للظاهرة الواحدة"^(١١).

وقد فقه الخليل هذه الحقيقة اللغوية وسبر غورها وساق على أساسها أصلاً بنائياً وضابطاً صوتياً له الأثر الكبير في تجسيد صورة المفردة العربية بقوله عن خصائص الأصوات التي تبنى منها المفردة: ما "مُذِلٌّ بهنَّ اللسان وسهلت عليه في المنطق كَثُرَتْ في أبنية الكلام"^(١٢)، فكان ضابط السهولة الأساس في اعتماده هذا الأصل الذي انبثقت منه ضوابط فرعية تتحكم في تلك الأبنية وهي:

١) سهولة أصوات الذلاقة:

إنَّ ضابط السهولة الذي تتمتع به أصوات الذلاقة ليس قائماً على أساس الملامح التمييزية التي تجعل لكل صوت مظهراً صوتياً مميزاً والذي يطلق عليه صفة الصوت، فالذي جعلها تتمتع بتلك السهولة هو مخارجُها من جهة، والأعضاء المشاركة في إنتاج تلك الأصوات من جهة أخرى. ولهذا نجد الخليل في أوَّل حديثه عن الخصائص الصوتية التي لها دورٌ في بناء المفردة العربية شرع بالحديث عن هذه المجموعة، فجعل أوَّل حديثه عنها بتحديد مخرجها كونه الأهمُّ في صفة خفتها وسهولة نطقها، فقال: "اعلم أنَّ الحروف الذُّلُق والشفوية ستةٌ وهي: (ر ل ن، ف ب م)، وإنما سُمِّيَتْ هذه الحروف ذُّلُقاً؛ لأنَّ الذلاقة في المنطق إنّما هي بطرف أسلة اللسان والشفيتين، وهما مدْرَجتا هذه الأحرف الستة، منها ثلاثة ذلقية (ر ل ن) ، تخرج من ذلق اللسان وثلاثة شفوية (ف ب م) ، مخرجها من بين الشفتين خاصة، لا تعمل الشفتان في شيءٍ، من الحروف الصالح إلا هذه الأحرف الثلاثة فقط، ولا ينطق اللسان إلا بالراء واللام والنون"^(١٣)، ثم تابع حديثه عن بقية الأصوات بمعزل من تلك وبين ما فيها من ثقل بسبب اختلاف مخرجها من جهة وعمل أعضاء النطق في إنتاجها من جهة أخرى. الأمر الذي جعله يعزوه سبباً لثقلها ومن ثمَّ قلَّتها في الكلام قياساً مع أصوات الذلاقة فجاء قوله: "وأما سائر الحروف فإنَّها ارتفعت فوق ظهر اللسان من لدن باطن الثنايا من عند

مخرج التاء إلى مخرج الشين بين الغار الأعلى وبين ظهر اللسان. ليس للسان فيهنَّ عملٌ كَثُرَ من تحريك الطبقتين بهنَّ، ولم ينحرفنَّ عن ظهر اللسان انحراف الرء واللام والنون، وأمَّا مخرج الجيم والقاف والكاف فمن بين عكدة اللسان وبين اللهاة في أقصى الفم. وأمَّا مخرج العين والحاء والهاء والحاء والغين فالحلق. وأمَّا الهمزة فمخرجها من أقصى الحلق مهتوتةً مضغوطةً^(١٤).

ويتضح من النص السابق أنَّ السهولة التي في تلك الأصوات بالدرجة الأولى نابعة من حقيقة مخرجها ودور اللسان في إنتاجها، فكلُّما كان مخرجها أقرب إلى الجوف أو بعد عن طرف اللسان كان ذلك الصوت بعيداً عن السهولة، فضابط السهولة في تلك الأصوات مقترن بالمرج لا بالصفة، وهذا ما دعا بعض الدارسين إلى القول: إنَّه "لا يجوز الخلط بين الأحرف الذلقية مخرجاً، والمُذلفة صفةً، فالذلقية لا تخرج إلا من ذلُق اللسان أمَّا المُذلفة فمنها ما يخرج من ذلق اللسان كالراء واللام والنون، ومنها ما يخرج من ذلق الشفة وهي الفاء والباء والميم ففي صفة الذلاقة شمول وعموم وفي مخرج الذلاقة تضيقٌ وتحديد والاتفاق في الاسم لا يوقع في اللبس عند التفرقة بين الصفة والمخرج"^(١٥). فتسمية النوعين بالأصوات الذلقية أو الذوقية جاءت على جهة التغليب^(١٦).

٢) وجوب تضمن الأصول فوق الثلاثية على صوت ذلاقة أو أكثر:

على الرغم من تعلق هذا الضابط بالجانب الصرفي تعلقاً وثيقاً؛ كونه يؤدِّي دوراً مهماً في التمييز بين عدد أحرف أصول الأبنية، وهو أحد الجوانب المهمة بالنسبة لعمل الخليل في تأليفه كتاب العين، إلا أنَّ اعتماد الجانب الصوتي في التنبؤ بصحة تلك الأبنية وأصالتها العربية وُلد ضابطاً صوتياً لا يمكن التغافل عنه وهو ما ذكره بعد إتمام مقدّمته الأولى الخاصة بأصوات الذلاقة بقوله: "فليس شيءٌ من بناء الخماسي التام يعرَى منها أو من بعضها"^(١٧) (يعني أصوات الذلاقة) ثم أضاف: "فإنَّ وردت عليك كلمة رباعية أو خماسية مُعرأةً من حروف الذلُق أو الشفوية ولا يكون في تلك الكلمة من هذه الحروف حرف واحد أو اثنان أو فوق ذلك فاعلم أنَّ تلك الكلمة محدثةٌ مبتدعةٌ، ليست من كلام العرب؛ لأنَّك لست واجداً من يسمع من كلام العرب كلمةً واحداً رباعيةً أو خماسيةً إلا وفيها من حروف الذلُق والشفوية واحد أو اثنان أو أكثر"^(١٨). فاعتماده على ضابط صوتي في تحديد المهمل من المستعمل من كلام العرب جعله يختصر من عمله ما يزيد على شطره بكثير. فما تبيَّن سابقاً من سهولة النطق بهذا الأصوات كان متناسباً مع طول الكلمة ممَّا جعل الأبنية الرباعية والخماسية متضمنةً تلك السمة التمييزية لأصوات حروفها للتخفيف أمام طول الكلمة وهو ما صرَّح به الخليل بقوله: "فلمَّا نقلت الحروف الستة ومُدلَّ بهنَّ اللسان وسهلتُ عليه في المنطق كثرت في أبنية الكلام"

(١٩). فكونها "أخفّ الحروف وأسهلها تحركاً وأوضحها تفاعلاً وبغيرها وأيسرها نطقاً على اللسان؛ لذلك قلّ أن نجد لفظاً يزيد على الثلاثة خالياً من الذلاقة أو من شيء منها" (٢٠). ومن أمثلة تلك الكلمات التي تخلو من أصوات الذلاقة وهنّ فوق ثلاثة ما نكرهنّ الخليل بقوله: "وأما البناء الرباعي المنبسط فإنّ الجمهور الأعظم منه لا يعزى من الحروف الذلق أو من بعضها، إلا كلمات نحواً من عشر [جئن] (٢١) شواذٌ ومن هذه الكلمات: العسجدُ والقسطوس والقُداحس والدُعشوقَةُ والهُدَعَةُ والرُّهْرُقَةُ وهي مُفسّرة في أمكنتها" (٢٢).

ثانياً: ضابط التحسين

إنّ غاية اللّغة في تحسين ألفاظها كما يقول د. أحمد مختار عمر: "هي تحقيق الوضوح السمعي" (٢٣). وإذا كان ضابط السهولة الذي اعتمده الخليل في بيان خصائص أصوات الذلاقة كونها الأخفّ في النطق وهذا ما جعلها الأكثر في كلام العرب، كما أقرت ذلك الدراسات الحديثة (٢٤)، من جهة وأنّها المحسن الصوتي الذي تعتمده الأصول الرباعية والخماسية، فإذا كان ذلك الضابط نابعاً من خصائص تلك الأصوات المخرجية كما سبق وذكرنا؛ فإنّ ضابط التحسين نابع من خصائص مجموعة أخرى من الأصوات تتعلق بصفات تلك لا بمخرجها، بعبارة أخرى فإنّ الخليل أقرّ جانب السهولة في أصوات الذلاقة من حيث مخارج تلك الأصوات ممّا جعلها مُحسّناً صوتياً وأقرّ جانب التحسين في مجموعة أخرى من الأصوات من حيث صفاتها ممّا جعل ذلك مُحسّناً صوتياً لها تعقّب أصوات الذلاقة في دورها لبناء الأصول اللغوية.

فبعد أن أرسى الخليل للسهولة في أصوات الذلاقة ضوابطها وقعد قواعدَها في صور أبنية الكلام وما يحتمل أن ينكلم به العربيّ دون غيره وفق تلك الضوابط، شرع في بيان مجموعة من الألفاظ شدّت عن ذلك الضابط، بقوله: "وأما البناء الرباعي المنبسط فإنّ الجمهور الأعظم لا يعزى من الحروف الذلق أو من بعضها، إلا كلمات نحواً من عشر جئن شواذٌ" (٢٥)، والجدير بالذكر في هذا المقام أمران: الأوّل أصالة الدرس الصوتي عند الخليل، فنقل الدرس الصوتي من غير العرب لا يبيّن تلك النكت الدقيقة في خصائص اللغة العربية، والأمر الآخر الذي يتبيّن لنا هو مدى علم الخليل بأسرار هذه اللغة وإحاطته بكلام أهلها، فعلى ما يبدو أنّ الخليل أحاط خُبراً بكلام العرب كلّهُ مسموعه ومقبسه، وإلا لم يكن يستطيع إطلاق هذا الحكم القاطع (٢٦). ثم بيّن مجموعة من الضوابط المُحسّنة لتلك الأبنية والتي يمكن إجمالها بالآتي:

١) التحسين بالطلاقة:

من الضوابط الصوتية المحسنة لبنية المفردة التي وضعها الخليل في مقمّمته، أنّه عند خلو الرباعي والخماسي من أصوات الذلاقة فإنّ تلك الأبنية تتضمّن أصواتاً تتّصّف بالطلاقة، إذ قال عن الأصول العربية التي جاءت فوق الثلاثية وهي تخلو من أصوات الذلاقة: "وهذه الحروف قد عرّين من حروف الذلق؛ ولذلك نزرّن فقللن. ولولا ما لزمهنّ من العين والقاف ما حسّن على حال؛ ولكنّ العين والقاف لا تدخلان في بناءٍ إلا حسّنتاه؛ لأنّهما أطلق الحروف وأضخهما جرساً فإذا اجتمعتا أو أحدهما في بناءٍ حسّن البناء لنصاعتهما" (٢٧).

فأصل الطلاقة " (طلق) الطاء واللام والقاف أصل صحيح مطرّد واحد، وهو يدلّ على التخلية والإرسال" (٢٨)، وهو مأخوذ من قولهم: "رجلٌ طلق اليدين والوجهٍ وطلقهما، سمحهما... ورجل طلق اللسانٍ وطقّ وطقّ وطبق فصيح" (٢٩). وفي المعنى الاصطلاحي: "هو قوة وضوح الصوت. وصوتا الطلاقة هما العين والقاف" (٣٠). وكانت عبارة ابن جني (٣٢٨هـ) مفصّلة لعبارة الخليل المجمّلة عن صفة الطلاقة بقوله: "على أنّ العين والقاف قد حسّنتا الحال لنصاعة العين ولذاذة مُستَمَعها، وقوة القاف وصحة جرسها" (٣١). وضّم د. رشيد العبيدي إلى صوتي العين والقاف صوتي السين والدال بقوله إذ قال: "أصوات الطلاقة وهي أصوات إذا اجتمعت في بناء كلمة حسّن بناؤها لنصاعتها وضخامة جرسها وهذه الأصوات هي العين والقاف والسين والدال" (٣٢) ولا يبدو الأمر كذلك؛ لأنّ عبارة الخليل تفصل بين المجموعتين: (مجموعة الطلاقة العين والقاف، ومجموعة التوسط السين والدال) ويتجلى ذلك في قول الخليل: "مهما جاء من بناء اسم رباعي منبسط معرى من الحروف الذلق والشقويّة فإنّه لا يعرّى من أحدِ حرّفي الطلاقة أو كليهما، ومن السين والدال أو أحدهما" (٣٣). فعطّف المجموعة على الأخرى يعني تغيّرها عن بعض، ويؤيد ذلك ما ذكره الدكتور أحمد محمد قدور في معرض حديثه عن فكرة الخليل عن تحسين البناء فوق الثلاثي "أنّ القاف والسين يتصّفان بالطلاقة وضخامة الجرس والنصاعة... ولأنّ السين والدال تتصّفان بالتوسط والاعتدال" (٣٤). ويبدو أنّ د. رشيد العبيدي جمعهما مع بعض لاجتماعهما في تحسين البناء فوق الثلاثي إذا خلا من أصوات الذلاقة.

ومهما يكن من أمر فإنّ المحسّن الصوتي الذي سمّاه الخليل بالطلاقة والذي سبق التعريف به وبالصوتين اللذين يحملان تلك الصفة (العين والقاف)، هو محسّن نابع من ملامح تلك الأصوات التمييزية، أي إنّ الطلاقة من الصفات الصوتية التي لا تجدها في غير هذين الصوتين ممّا جعل وجودها في الأصوات فوق الثلاثية التي تخلو من أصوات الذلاقة شرطاً للسلامة من الدخيل في كلام

العرب، والذي يوید ذلك اختلاف انتمائهما المخرجي، فمخرج العين غير مخرج القاف كما هو معلوم لدى الدارسين^(٣٥). والطلاقة كما فسرها الخليل تعني ضخامة الجرس والنصاعة^(٣٦). إجمالاً وجاءت عند ابن جني مفصلةً لكلّ صوت بقوله: "العين والقاف قد حسّنتا الحال لنصاعة العين ولذاذة مُسْتَمَعِها، وقوة القاف وصحة جرسها"^(٣٧).

والذي يبدو من استعراض النصوص أنّ الطلاقة صفة لا تعني قوة الصوت، فلو كانت كذلك لكان صوت الطاء هو أطلق الأصوات العربية؛ لأنّ قوة الصوت بالمعنى الاصطلاحي: "هي الصفة الإيجابية للصوت"^(٣٨)، "فكلّ صفات الجهر والشدة والإطباق والاستعلاء والتفخيم والصفير والتكرير والغنة، هي صفات إيجابية"^(٣٩). قال مكّي: "الطاء من أقوى الحروف، لأنّه حرف مجهور شديد مطبّق مستعلٍ، وهذه الصفات كلّها من علامات قوة الحرف مع انفرادها، فإذا اجتمعت في حرفٍ كَمَلَّتْ قوته"^(٤٠). والذي يبدو للبحث أنّ مفهوم الطلاقة يُشير إلى سهولة نطق الصوت مع وضوحه السمعي، بمعنى أنّ أداءه لا يتطلّب مجهوداً عضلياً كبيراً كذلك الأصوات التي تجتمع بها صفات القوة، وأنّ قيمته السمعية عالية بما يجعله لا يلتبس على السامع مع صوت آخر، ومثاله صوت العين الذي تجده أخفّ من الهمزة التي وصفها الخليل بقوله: "وأما الهمزة فمخرجها من أقصى الحلق مهتوتة مضغوطة"^(٤١)، وفي الوقت نفسه نجد العين أقوى من غيره من أصوات الحلق كالحاء وبحتها والهاء وهشاشتها، قال الخليل: "فأقصى الحروف كلها العين ثم الحاء ولولا بحّة في الحاء لأشبهت العين لقرب مخرجها من العين، ثم الهاء ولولا هنتّة في الهاء وقال مرة - ههّة - لأشبهت الحاء لقرب مخرج الهاء من الحاء"^(٤٢). أي: إنّ العين أوضح أصوات الحلق وليست بالأقوى، ولا يعقل أنّ يتحسّن اللفظ بإضافة صوت ثقيل النطق إليه، بل ما تتطلبه النصاعة مع الخفة، وهذه صفة الطلاقة الموجودة في صوت العين، وهو ما عناه ابن جني بقوله عنه: "لنصاعة العين ولذاذة مُسْتَمَعِها"^(٤٣)، وكذلك الأمر مع القاف فهو صوت ذو قيمة إسماعية عالية، لا يلتبس مع غيره من الأصوات عند السامع، وهو في الوقت نفسه ليس بالمستعلي ولا الصفيري ولا النلق، وهو ذو جرس ضخم كما وصفه الخليل، وهو نفسه ما عناه ابن جني بقوله عن القاف: صحة جرسها^(٤٤)، وهو مفهوم المعنى الاصطلاحي للطلاقة، ونعني به قوة وضوح الصوت لا قوة الصوت نفسه بمجموع صفاته القوية. فإذا كان الصوت واضحاً في السمع خفيفاً في النطق أو بعبارة الخليل طلقاً، يُحسّن البناء الذي يدخل فيه كما تُحسّن أصوات الذلاقة البناء الذي تدخله، ومن أمثلتها: العَسْجُدُ والقَسْطُوسُ والقُدَاحِسُ والدُعْشُوقَةُ وغيرها ممّا سبق ذكره.

٢) التحسين بالتوسط والاعتدال:

كما سبق ذكرنا في بداية الحديث عن ضابط التحسين أنه ضابط يتعلّق بصفة الصوت لا بمخرجه، وأنّ الخليل جعله في أمرين: الأول طلاقة الصوت كما تقدّم ذكره، والآخر التحسين بتوسط الصوت واعتداله، وهو ضابط لا تكتمل صورته دون معيَّة ضابط الطلاقة هو ما عناه الخليل بقوله: "فإن كان البناء اسماً لزمته السين أو الدال مع العين أو القاف"^(٤٥). وتبرز صفة التوسط والاعتدال في صوتي السين والدال من خلال مقارنة هذين الصوتين مع مجموعة الأصوات المشتركة معهما في المخرج، وهذا ما عمد إليه الخليل في بيان تلك الصفة بقوله عنهما: "لأنّ الدال لانت عن صلابة الطاء، وكزازتها، وارتفعت عن خفوت التاء فحسنت. وصارت حال السين بين مخرج الصاد والزاي كذلك"^(٤٦). فتوسط صوت الدال واعتداله مُتأتٍ من مخالفته بعض صفات الطاء ممّا جعلها أقلّ قوَّة منها، فالصلابة والكزازة في نصّ الخليل مصطلحان معناهما القوة^(٤٧).

واختلف صوت الدال عن صوت التاء بأنّه ارتفع عن خفوته بالجهر، فالتوسط بين سهولة اللفظ والوضوح السمعي لصوت الدال جعله محسناً صوتياً يميّزه عن قرائنه من الأصوات في مخرجه. أمّا صوت السين فانسلاّه دون الجهر الذي في الزاي والاستعلاء الذي في الصاد، وكما قال عنه ابن جني: "والسين أيضاً لانت عن استعلاء الصاد، ورقت عن جهر الزاي، فعذبت وانسلت"^(٤٨). فاستقالة صوت السين دون استعلاء الصاد وانسلاّه دون جهر الزاي منحه التوسط والاعتدال الذي ميّزه عن بقية أصوات مخرجه ممّا جعله يجمع بين سهولة اللفظ والوضوح السمعي. فكان له من ذلك التحسين صفات الدال والسين منحتهما التوسط والاعتدال، وهو ما عناه د. أحمد قُدور بقوله: "أمّا إذا كان البناء الخالي من حروف الذلاقة اسماً فتلزمه السين والدال مع لزوم القاف والعين؛ لأنّ السين والدال تتصفان بالتوسط والاعتدال"^(٤٩).

٣) التحسين بالمحاكاة:

المقصود بالمحاكاة: "أنّ تكون أصوات الكلمة نتيجة تقليد مباشر لأصوات طبيعية صادرة عن الإنسان أو الحيوان أو الأشياء"^(٥٠). أو هو تسمية الأشياء بأصواتها^(٥١)، ويطلق عليها أيضاً "المناسبة الطبيعية"^(٥٢). وعلى الرغم من أنّ دُكر هذه الظاهرة ارتبط ارتباطاً وثيقاً بابن جني؛ وذلك لوقوفه عليها وقفة تبرز حرفته وقوة صنعته، لاسيما في كتابه الخصائص في أكثر من موضوع، ومنها باب تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني^(٥٣)، إلا أنّ الخليل قد سبقه بذكر هذه الظاهرة، وقد اعترف بذلك ابن جني بقوله: "اعلم أنّ هذا الموضوع شريف لطيف وقد نبّه عليه الخليل وسيبويه

وتلقته الجماعة بالقبول له والاعتراف بصحته^(٥٤). إلا أنَّ الخليل وظَّف تلك الظاهرة لخدمة ما هو في صدره من بيان ما يحسن في كلام العرب وما لا يحسن، وجعلها ضابطاً يحسن الأصول الرباعية التي تخلو من أصوات الذلاقة، إذ قال: "وأما ما كان من رباعي منبسطة مُعزى من الحروف الذلقية حكاية مؤلفة نحو: دهداق وزهراق وأشباهاها، فإنَّ الهاء [لازمةً له فصلاً بين حرفيه المتشابهين]^(٥٥) لزوم العين أو القاف مستحسن^(٥٦). وجعل تلك المحاكاة على قسمين: الأولى الحكاية المؤلفة، والأخرى الحكاية المضاعفة، فقال: "الحكايات الرباعية لا تخلو من أنَّ تكون مؤلفة أو مضاعفة"^(٥٧) إلا أنَّه فرَّق بين النوعين بجملة شروط في الأولى وهي:

١. أن تكون الحكاية المؤلفة "حرف صدرها موافقاً لحرف صدر ما ضمَّ إليها في عجزها ... ولولا ما جاء فيهما من تشابه ما حسنت الحكاية فيهما"^(٥٨).

٢. أن يفصل بين حرفي صدرها وصدر ما ضمَّت إليه صوتُ الهاء مع لزوم صوت القاف أو العين، وعلل ذلك بأنهم "استحسنوا الهاء في هذا الضرب للينها وهشاشتها، وإمَّا هي نفس لا اعتياص"^(٥٩) فيها^(٦٠).

٣. "وإنَّ كانت الحكاية المؤلفة غير معرَّة من الحروف الذلق فلن يضرَّ، كانت فيها الهاء أو لا، نحو: الغمطة، وأشباهاها"^(٦١). وذكر أنَّ هذا النوع من الحكاية المؤلفة نَزَّر قليلٌ بالقياس مع النوع الآخر.

أمَّا النوع الآخر فهو الحكاية المضاعفة نحو: الصلصلة والزلزلة وغيرها، فلا يشترطون فيها شيئاً إمَّا التضعيف لوحده يُحسن الكلام من دون قيد أو شرط، فقال: "وما كان حرفاً عجزه مثل حرفي صدره-وذلك بناءً يستحسنه العرب- فيجوز فيه من تأليف الحروف جميع ما جاء من الصحيح والمعتل، ومن المُدلق والمُطلق والصنم"^(٦٢). فجعل محاكاة الأصوات بالتضعيف من ضوابط تحسين الأصول البنائية عند العرب، فقال: "وأما الحكاية المضاعفة فإنَّها بمنزلة الصلصلة والزلزلة وما أشباهاها، يتوهَّمون في حُسن الحركة ما يتوهَّمون في جرس الصوت، يُضاعفون لتستمر الحكاية في وجه التصريف"^(٦٣).

ويؤيد كلامه ذلك بذكر شواهد من أصوات لا يمكن أن تجتمع متجاورةً في كلمة، نحو: الضاد والكاف، إلا أنَّها في المحاكاة بالتضعيف يجوز فيها ذلك، فيقول: "ويجوز في حكاية المضاعفة ما لا يجوز في غيرها من تأليف الحروف، ألا ترى أنَّ الضاد والكاف إذا أُلغتا فبُدئ بالضاد فقيل "ضك" كان تأليفاً لم يحسن في أبنية الأسماء والأفعال إلا مفصلاً بين حرفيه بحرف لازم أو أكثر، من ذلك: الضنك والضحك وأشباه ذلك، وهو جائز في المضاعف نحو الضكضاكة من النساء، فالمضاعف جائز فيه كلُّ غثٍّ وسمين من الفصول والأعجاز والصدور وغير ذلك"^(٦٤). ولأنَّ صيغة

التضعيف من طرائق تحسين اللفظ؛ لأنها أخف على اللسان، فقد بدأ بها الخليل كل باب من أبواب كتابه فقال: "وبدأنا الأبنية بالمضاعف؛ لأنه أخف على اللسان وأقرب مأخذاً للمتفهم"^(٦٥).

ثالثاً: ضابط المخرج

يروم البحث هنا الوقوف على الضابط الذي وضعه الخليل في مقدّمة معجمه لتحديد مخارج الأصوات، فهو معني بهذه الجزئية، ومن ثم فهو غير معني بتقييم ما ذكره الخليل إن كان صواباً أو غير ذلك، فلهذا الأمر دراسات متخصصة أغنت جوانب واسعة ومهمّة منه، فضايط المخرج: هو احتراز يُراعى فيه حالة الصوت وخصائصه وما له دور في عملية إنتاجه من أعضاء النطق. ومن هنا وبعد التأمل في تلك المقدمة في إطار هذه الجزئية تبين للبحث جملة أمور تتعلّق بالمخارج وترتيبها، يمكن إجمالها على النحو الآتي:

١. لقد ذكر الخليل ترتيب الأصوات المخرجي خمس مرات^(٦٦)، في مقدّمته، وإن دلّ هذا على شيء فإنّما يدلّ على أهميّة هذه الجزئية لعمله.
٢. في كل مرة يذكر الخليل الترتيب المخرجي يذكره بطريقة تختلف عن الأخرى، ليس في الترتيب، وإنّما في طريقة العرض والمعالجة للموضوع الذي من أجله ذكر الترتيب، وسنسمي كل طريقة باسم التسلسل الذي جاءت به في المقدّمة نحو: الأولى والثانية... وهلمّ جراً، وفي أدناه إيجاز لتلك الطرائق:

نص كتاب العين	تسلسل الطريقة
ع، ح، هـ، خ، غ، ق، ك، ج، ش، ض، ص، س، ز، ط، د، ت، ظ، ث، ذر، ل، ن، ف، ب، م، و، ا، ي - همزة"	الطريقة الأولى: ٤٨/١
"منها ثلاثة ذليقة ر ل ن، تخرج من دُلُق اللسان من (طَرَف غار الفم) وثلاثة شفوية: ف ب م، مخرجها من بين الشفتين خاصة، لا تعمل الشفتان في شيء، من الحروف الصَّحاح إلا في هذه الأحرف الثلاثة فقط، ولا ينطلق اللسان إلا بالراء واللام والنون. وأما سائر الحروف فإنها ارتفعت فوق ظهر اللسان من دُلُن باطن النشاي من عند مَخْرَج التاء إلى مخرج الشين بين الغار الأعلى وبين ظهر اللسان. ليس للسان فيهن عمل أكثر من تحريك الطبقتين بهنَّ، ولم ينحرفن عن ظهر اللسان انحراف الراء واللام والنون. وأما مَخْرَج الجيم والقاف والكاف فمن بين عكدة اللسان وبين اللهاة في أقصى الفم. وأما مَخْرَج العين والحاء و (الهاء) والحاء والغين فأخْلَقَ وأما الهمزة فَمَخْرَجُها من أقصى الخلق مَهْثُوتة مضغوظة فإذا رَفَعَهَا لانت فصارت الياء والواو والألف عن غير طريقة الحروف لصَّاح".	الطريقة الثانية: ٥٢-٥١/١
"قال الخليل: فأقصى الحروف كلها العين ثم الحاء ولولا بحة في الحاء لأشبهت العين لقرَّب مَخْرَجُها من العين، ثم الهاء ولولا هتة في الهاء، وقال مرة هبة لأشبهت الحاء لقرَّب مَخْرَجُ الهاء من الحاء، فهذه ثلاثة أحرف في حيز واحد بعضها أرفع من بعض ثم الخاء والغين في حيز واحد كلهنَّ حلقية، ثم القاف والكاف لهويتان، والكاف أرفع ثم الجيم والشين والضاد في حيز واحد، ثم الصاد والسين والراء في حيز واحد، ثم الطاء والدال والتاء في حيز واحد، ثم الطاء والدال والتاء في حيز واحد، ثم الراء واللام والنون في حيز واحد ثم الفاء والباغ والميم في حيز واحد، ثم الألف والواو والياء في حيز واحد والهمزة في الهواء لم يكن لها حيز تسبب إليه".	الطريقة الثالثة: ٥٨-٥٧/١
"قال الخليل: فالعين والحاء والحاء والغين حلقية، لأن مبدأها من الخلق، والقاف والكاف لهويتان، لأن مبدأهما من المهواة. والجيم والشين والضاد شجرية لأن مبدأها من شجر الفم. أي مفرج الفم، والصاد والسين والراء أسلية، لأن مبدأها من أسلة اللسان وهي مستنق طرف اللسان. والطاء والتاء والدال نطعية، لأن مبدأها من نطح الغار الأعلى. والظاء والدال والتاء لثوية، [لأن مبدأها من اللثة. والراء واللام والنون ذلقية]، لأن مبدأها من دلق اللسان وهو تحديد طرفي دلق اللسان. والفاء والباء والميم شفوية، وقال مرة شفوية لأن مبدأها من الشفة. والياء والواو والألف والهمزة هوائية في حيز واحد، لأنها لا يتعلَّق بها شيء، فَنَسِبَ كل حرف إلى مَدْرَجَتِهِ ومَوْضِعِهِ الذي يَبْدَأُ منه".	الطريقة الرابعة: ٥٨/١
"فهذه صورة الحروف التي أَلْفَتْ منها العربية على الولا، وهي تسعة وعشرون حرفاً: ع ح هـ خ غ، ق ك، ج ش ض، ص س ز، ط د ت، ظ ذ ث، ر ل ن، ف ب م، فهذه الحروف الصحاح، وا ي فهذه تسعة وعشرون حرفاً منها أبنية كلام العرب".	الطريقة الخامسة: ٥٨/١

٣. تميَّزت الطريقتان الأولى والخامسة بخلوهما من أيَّة تفاصيل وأنَّهما مجرد أصوات دون اختلاف في الترتيب، إشارةً منه إلى أنَّ هذا الترتيب عليه مدار هذا الكتاب وهو اعتماد ترتيب أصوله اللغوية وأنَّه انتهى من حيث ابتداء، وأنَّ ما دار بين هذين العرضين من تفاصيل ليس سوى تعليل وتفسير له.

٤. تميّزت الطريقة الثانية لترتيب المخارج عن غيرها من الطرائق بأنّها معكوسة، فبدأها من الشفتين وانتهى إلى الجوف، وهذا الترتيب خاص بها؛ لأنّها جاءت مع الحديث عن أصوات الذلاقة والتي تتميز بقربها من طرف اللسان والفم، ممّا جعلها الأَخْفَ نطقاً وهو الترتيب الأنسب لذكرها.
٥. كما تميّرت الطريقة الثانية بذكر دور أعضاء النطق في إنتاج كل مجموعة من الأصوات والذي دفعه إلى ذلك؛ ليبين للقارئ أثر ذلك الدور في خفة نطق تلك الأصوات من دونه.
٦. تميّرت الطريقة الثالثة عن غيرها من الطرائق كونها بيّنت أحياء كل مجموعة وترتيبها داخل تلك الأحياء.
٧. وما يميز الطريقة الرابعة أنّها جاءت تحمل تسمية كل مجموعة من تلك المجموعات بحسب مواطن ولادتها من جهاز النطق مثل، الحلقية، واللّهوية، والشجرية وغيرها.
٨. لا يمكن الحكم على أهميّة طريقة ترتيب دون أخرى؛ بل لجميع تلك الطرائق الأهميّة نفسها في هذا العمل، وكلّ طريقة لها خصوصيتها الفنية والعلمية والمنهجية.
٩. إنّ المخارج التي ذكرها الخليل لا تتجاوز العشرة مخارج^(٦٧).
- وبعد هذه الجملة من الأمور التأمليّة في تحديد المخارج في تلك المقدّمة، يمكننا الوقوف على الضوابط التي اعتمدها الخليل في تحديد مخرج الصوت، ويمكن بيانها على النحو الآتي:

(١) ما يتعلّق بالصوت نفسه:

إنّ من أهمّ المبادئ التي تركز عليها طريقة ضبط المخرج لكل صوت هو كون ذلك الصوت ساكناً عند معاينته لتحديد مخرجه، وهذا الضابط لم يصرّح به الخليل في مقدمته إلا أنّه جاء ضمناً في طريق عرضه لمفهوم ترتيب الأصوات مخرجياً فقال: "وإنّما كان ذواقه إيّاها أنّه كان يفتح فاه بالألف ثمّ يظهر الحرف، نحو أب، أت، آخ، أع"^(٦٨). والحقيقة في ذلك أنّ الصوت متى ما تحرك تركت تلك الحركة أثراً في طريقة أدائه، ممّا جعله ينحرف عن مخرجه إلى جهة تلك الحركة، فلا يحسن مع تلك الطريقة تحديد سليمٍ لذلك الصوت، وقد فسّر ذلك ابن جني بقوله: "وسبيلك إذا أردت اعتبار صدى الحرف أن تأتي به ساكناً لا متحركاً؛ لأنّ الحركة تُقلِّق الحرف عن موضعه ومُسَقِّره وتجذبه إلى جهة الحرف الذي هي بعضه"^(٦٩)، فاعتماد الخليل في تحديد مخرج الصوت على ألف الوصل بقوله: "إنّه" كان يفتح فاه بالألف ثمّ يظهر الحرف"^(٧٠)، وفيه إشارة إلى أنّه استعان بتلك الألف للنطق بالصوت ساكناً؛ لأنّ اللسان العربي لا يبدأ بالساکن، وبيّن هذه الحقيقة في موطن آخر عند حديثه عن الأفعال المبدوءة بصوت ساكنٍ قبله ألف الوصل بقوله: "وإنما دخلت هذه الألفات في

الأفعال وأمثالها من الكلام لتكون الألف عماداً وسُلماً للسان إلى حَرْف البناء، لأنَّ حرف اللسان لا ينطلق بالساكن من الحروف فيحتاجُ إلى ألفِ الوصل^(٧١).

وبالعودة إلى ما ورد عن الخليل في غير مقدمة العين بخصوص هذه الملاحظة، نجد تلميذه سيبويه يروي عنه تفصيل ذلك " قال: كيف تلفظون بالحرف الساكن نحو ياء غلامي وياء اضرب ودال قد؟ فأجابوا بنحو مما أجابوا في المرّة الأولى فقال: أقول إبّ وإي وإد، فألحق ألفاً موصولة. قال: كذاك أراهم صنعوا بالساكن"^(٧٢).

وهذا الضابط، على أهمّيته ودوره الفاعل في تحديد مخرج الصوت وإيمان الدارسين به قديماً وحديثاً، لم أجد أحداً من الدارسين يثني على وقوف الخليل عليه -بحدود ما اطلع عليه البحث- سوى ما ذكره د.حلمي خليل من أنَّ الخليل اختار: "سكون الحرف على حركته في التذوق؛ لأنَّ الحركة في السمع جرس زائد على جرس الحرف يُخفيه إذا تلاه، وهو ما عبّر عنه ابن جني بقوله: إنَّ الحركة تُقلِّق الحرفَ عن موضِعِه، كذلك فإنَّ في الحركة عملاً زائداً على الحرف المراد ذواقه، و كأنَّما أدرك الخليل أنَّ الحرف شيءٌ و الحركة شيءٌ آخر"^(٧٣)، وهو حقيقةٌ علميةٌ تنضوي على فهم دقيقٍ لعملية تحديد مخرج الصوت. ويؤيد ذلك أنَّك لا تجد أحداً يخرج عن هذا الضابط أو القول بما يخالفه لا قديماً ولا حديثاً.

٢) ما يتعلّق بالتفريق بين الصوت الصحيح والصوت المغلّ:

إنَّ دور أعضاء النطق في إنتاج الصوت عند الخليل كان له أثرٌ كبيرٌ في تحديد مخرج الصوت، وهذا ما جعله يقسم الأصوات على قسمين رئيسيين في أكثر من موضع، وهما: الصحيحة، وغير الصحيحة، (أو الجوف على حدِّ تعبير الخليل) إذ قال: "في العربية تسع وعشرون حرفاً، منها خمسةٌ وعشرون حرفاً صحيحاً لها [أحياز] ^(٧٤) ومدراج، وأربعة أحرف جوف وهي: الواو، والياء، والألف اللينة، والهمزة"^(٧٥).

وهذه أيضاً من الحقائق العلمية التي أثبتتها الخليل، وسار على نهجه من جاء بعده من الدارسين، وهي اليوم من أساسيات درس الصوتي الحديث^(٧٦). وهو ما يستحق الثناء عليه وإنصافه في فصله بين هذين النوعين من الأصوات في الدراسة لاختلاف خصائص كل مجموعة عن الأخرى.

٣) ما يتعلّق بأعضاء النطق:

استعمل الخليل مصطلح الحلق ليدل على معنيين، الأول جهاز النطق، والذي نعني به اسم "الأعضاء التي تُسهم في عملية إحداث الكلام" (٧٧)، أو هو "الآلة التي بواسطتها تخرج الأصوات" (٧٨). وذلك في قوله: "قَدِّبْ ونظر إلى الحروف كلها وذاقها فوجد مخرج الكلام كلّه من الحلق" (٧٩)، وهذه الحقيقة أشار إليها د. أحمد قدور بقوله: "ويبدو أنّ كلمة (الحلق) الواردة في المواضع المتعلقة بنطق الحروف لا تُشير بالضرورة إلى مخرج الحلق الذي تصدر منه الأصوات الحلقية الستة. فربّما كانت كلمة الحلق هنا تدلّ على مصدر الحرف الذي تخرج منه بدايةً، سواء أكانت تتوقف فيه أم تتجاوزه إلى ما يعلوه من أعضاء النطق أو مواضع نطقية أخرى" (٨٠).

والاستعمال الآخر للحلق الذي "هو تجويف أشبه بفراغ واقع بين الحنجرة وأقصى الحنك" (٨١). والذي يعيننا ممّا تقدّم أنّ الخليل أدرك حقيقة جهاز النطق ورسم حدوده ويتجلى ذلك في قوله: إنّ "العين أدخل الحروف في الحلق فجعلها أوّل الكتاب ثم ما قرّب منها الأرفع فالأرفع، حتى أتى على آخرها وهو الميم" (٨٢).

والضابط الذي وضعه لأعضاء النطق تلك في تحديد المخرج هو عمل العضو في إنتاج الصوت، وهو ما عناه بقوله عن مخرج الفاء والباء والميم: "مخرجها من بين الشفتين خاصة، لا تعمل الشفتان في شيء من الحروف الصاحح إلا في هذه الأحرف الثلاثة" (٨٣). ولم يكتفِ بتحديد جهاز النطق وتحديد الأعضاء التي تدخل في إنتاج الصوت بل حدد المخرج بمكان ولادة الصوت فقال عن أصوات الذلاقة: "الذلاقة في النطق إنّما هي بطرف أسلة اللسان والشفتين وهما مدرجتا هذه الأحرف الستة" (٨٤). وفسّر ابن جني تلك العملية بقوله: "علم أنّ الصوت عرض يخرج مع النفس مستطيلاً متصلاً، حتى يعرض له في الحلق واللفم والشفتين مقاطع تُثنته عن امتداده واستطالته فيسمى المقطع أينما عرض حرفاً" (٨٥).

فضابط تحديد المخرج متعلق بأعضاء النطق، ومكان ولادته، يحدده نقطة اعتراض تلك الأعضاء للهواء الخارج من الجوف، وهو ما دعا الخليل إلى نسبة أصوات العلة إلى الجوف؛ لأنّ الهواء لا يعترضه عارضٌ في أثناء تأديتها. في حين ينسب بقية الأصوات إلى مخارج محدودة. ومن الجدير بالذكر أنّ الخليل لم يكتفِ بتحديد المخرج بل قسّم المخرج إلى أحياز ومبادئ، وهو مقصده من إعادة ذكر ترتيب الأصوات بالطريقة الثالثة والرابعة (٨٦).

وأخيراً وليس آخراً فإنّ ما تقدّم سابقاً يُمثّل محاولةً سعى فيها البحث إلى الوقوف على مسائل صوتية عرضها الخليل في مقدّمته هي بالأهميّة بمكان، أتمنى أن تجد لها صدًى يُنتفع به أهل العلم، والله ولي التوفيق، والحمد لله ربّ العالمين.

الخاتمة

فيما يأتي أهمّ ما توصّل إليه البحث من نتائج:

- إنّ ما قدّمه الخليل في مقدّمة كتابه العين ممّا يتعلّق بالصوت دراسةً وتفصيلاً وتحليلاً لم يكن الهدف منه تقديم دراسة صوتيّة شاملة من أجلها ولذاتها، بل هو مسوق لغاية التمهيد لعمله في المعجم القائم في بعض من أسسه على الصوت.
- أهمل الخليل الكثير من المسائل الصوتيّة في مقدّمته؛ لأنّها لا تعني لغايته المعجمية في كتاب هذا الشيء الكثير وليس جهلاً بها، وحرص على تلك التي تدخل في بيان المهمل من المستعمل اللغوي بالاعتماد على القوانين الصوتيّة.
- ما توصّل إليه الخليل في مقدّمة كتابه العين من نكتٍ دقيقة تختصّ بها اللغة العربية يُثبتُ أصالة الدرس الصوتي عنده.
- ثمة ضوابط صوتية عامة وأخرى فرعيّة يمكن استنباطها من مقدّمة الخليل، تبيّن أنّه كانت من الأمور التي اعتمدها لتفسير بعض الظواهر الصوتية، وهذه الضوابط يمكن بيانها على النحو الآتي:
أولاً: ضابط السهولة: وهو ميل اللغة نحو السهولة والنتيسير، وغالباً ما يتعلّق بالمخرج، فتحاول التخلص من الأصوات العسيرة، وتستبدل بها أصواتاً أخرى لا تتطلّب مجهوداً عضلياً كبيراً، وتتجسّد صورته في سهولة أصوات الذلاقة، واعتماد الأصول فوق الثلاثية على الذلاقة.
ثانياً: ضابط التحسين: وهو تحقيق الوضوح السمعي، وهي ظاهرة تتعلّق بصفات الأصوات، ويتضمّن التحسين بالطلاقة، والتحسين بالتوسّط والاعتدال، والتحسين بالمحاكاة.
ثالثاً: ضابط المخرج: وهو احترازٌ يُراعى فيه حالة الصوت وخصائصه وما له دور في عملية إنتاجه من أعضاء النطق، ويتضمن ما يتعلّق بالصوت نفسه، وما يتعلّق بالتفريق بين الصوت الصحيح والصوت المعتل، وما يتعلّق بأعضاء النطق.
- اعتمد الخليل في وضع ضابط السهولة على مخارج الأصوات، في حين اعتمد في وضع ضابط التحسين على صفاتها.

- استعمل الخليل مصطلح (الطلاقة) ورأى البحث أنه لا يعني به قوة الصوت، وإنما قوة الوضوح السمعي.
- إعادة الخليل نكر ترتيب مخارج الأصوات خمس مرات لأهميتها في عمله، ولكل مرة كان لها اعتبارها الخاص الذي يتناسب مع معالجتها لعمله المعجمي من الناحية الفنيّة والعلميّة والمنهجية، ولا يمكن الحكم على أهميّة ترتيبه دون آخر.
- يُعدُّ الخليل أول من نبّه إلى الحقيقة العلمية لتسكين الصوت عند تحديد مخرجه، علماً أنه لا يوجد من أتى على ذلك من الدارسين قديماً وحديثاً مع إقرارهم بتلك الحقيقة.
- وهو أول من فصل بين صحيح الأصوات ومعتلّها عند الدراسة لاختلاف خصائصها.

المصادر

- أصالة علم الأصوات عند الخليل من خلال مقدمة كتاب العين، د. أحمد محمد قدور، دار الفكر، دمشق، ط ٢، ٢٠٠٣م.
- الأصوات اللغوية، د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط ٥، ١٩٧٥م.
- التعبير شرح التحرير في أصول الفقه، علاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان المرادوي (ت ٨٨٥ هـ) المحقق: د. عبد الرحمن الجبرين وآخرون، الناشر: مكتبة الرشد، الرياض، ط ١، ٢٠٠٠م.
- التطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه، د. رمضان عبد التواب، مطبعة المدني، القاهرة، د. ط، ١٩٨١م.
- التفكير الصوتي عند الخليل، د. حلمي خليل، دار المعرفة، الإسكندرية، ط ١، ١٩٨٨م.
- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢هـ)، تحقيق: محمد علي النجار، مطبعة دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط ٤، ١٩٩٠م.
- الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني، د. حسام سعيد النعيمي، دار الرشيد للنشر، بغداد، ط ١، ١٩٨٠م.
- دراسة الصوت اللغوي، د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، د. ط، ١٩٩١م.
- الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة بعلم مراتب الحروف ومخارجها وصفاتها وألقابها، أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي (ت ٤٣٨هـ)، دراسة وتحقيق: أ. فرغلي سيد عرابوي، مكتبة أولاد الشيخ للتراث، الحيزة، ط ١، ٢٠٠٩م.
- سر صناعة الأعراب، أبو الفتح عثمان بن جني (٣٩٢هـ)، تحقيق: أحمد فريد أحمد، المكتبة التوقيفية، القاهرة، د. ط، د. ت.
- العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ)، تحقيق: د. مهدي المخزومي و د. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، بغداد، ط ١، ١٩٨١م.
- فقه اللغة العربية، د. كاسد ياسر الزبيدي، جامعة الموصل، الموصل، د. ط، ١٩٨٧م.
- في البحث الصوتي عند العرب، د. خليل إبراهيم العطية، دار الجاحظ للنشر، بغداد، د. ط، ١٩٨٣م.
- الكتاب، أبو بشر عمرو سيوييه، المطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة، ط ١، ١٣١٧ هـ.

- لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي ابن منظور (ت ٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، ط ٣، ١٩٨٤م.
- اللسانيات وآفاق الدرس اللغوي، د. أحمد محمد قُدُور، دار الفكر، دمشق، ط ٢، ٢٠٠١م.
- مباحث في علم اللغة واللسانيات، د. رشيد عبد الرحمن العبيدي، مطبعة دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط ١، ٢٠٠٢م.
- المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، د. رمضان عبد التواب، مطبعة المدني، القاهرة، ط ٢، ١٩٨٥م.
- المصطلح الصوتي في الدراسات العربية، د. عبد العزيز الصيغ، دار الفكر، دمشق، ط ١، ٢٠٠٠م.
- المعاجم العربية مع اعتناء خاص بمعجم العين للخليل بن أحمد، د. عبد الله درويش، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د. ط، ١٩٥٦م.
- معجم الصوتيات، د. رشيد عبد الرحمن العبيدي، مركز البحوث والدراسات الإسلامية، بغداد، ط ١، ٢٠٠٧م.
- معجم المصطلح الصوتي عند علماء التجويد قاموس المصطلحات الصوتية العربية من خلال كتابات ابن الجزري المتوفى (٨٣٣هـ)، بلقاسم مكربني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠١٣م.
- مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥هـ)، مراجعة وتعليق: أنس محمد الشامي، دار الحديث، القاهرة، د. ط، ٢٠٠٨م.
- تعريف الضابط الفقهي والفرق بينه وبين القاعدة، نايف بن علي العوفي. <https://www.alukah.net>.

الهوامش

- (١) العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ)، تحقيق: د. مهدي المخزومي و د. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، بغداد، ط ١، ١٩٨١م: باب الضاد والطاء والياء ٢٣/٧، وينظر: لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي ابن منظور (ت ٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، ط ٣، ١٩٨٤م: مادة (ض ب ط) ٣٣٩/١١، ومقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥هـ)، مراجعة وتعليق: أنس محمد الشامي، دار الحديث، القاهرة، د. ط ٢٠٠٨م: مادة (ض ب ط) ٥٢٣.
- (٢) التحرير شرح التحرير في أصول الفقه، علاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان المرادوي (ت ٨٨٥ هـ) المحقق: د. عبد الرحمن الجبرين وآخرون، الناشر: مكتبة الرشد، الرياض، ط ١، ٢٠٠٠م: ١/١٢٦.
- (٣) تعريف الضابط الفقهي والفرق بينه وبين القاعدة، نايف بن علي العوفي. <https://www.alukah.net>.
- (٤) العين: ١/ ٤٧.
- (٥) المعاجم العربية مع اعتناء خاص بمعجم العين للخليل بن أحمد، د. عبد الله درويش، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د. ط، ١٩٥٦م: ٣.
- (٦) المعاجم العربية: ٣.
- (٧) أصالة علم الأصوات عند الخليل من خلال مقدمة كتاب العين، د. أحمد محمد قُدُور، دار الفكر، دمشق، ط ٢، ٢٠٠٣م: ٦٥.
- (٨) اللسانيات وآفاق الدرس اللغوي، د. أحمد محمد قُدُور، دار الفكر، دمشق، ط ٢، ٢٠٠١م: ٤٨.
- (٩) ينظر: الكتاب، أبو بشر عمرو سيبويه، المطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة، ط ١، ١٣١٧ هـ: ٤٠٣/٢.
- (١٠) أصالة علم الأصوات: ٤٤.

- (^{١١}) التطور اللغوي مظاهره وعمله وقوانينه، د. رمضان عبد التواب، مطبعة المدني، القاهرة، د. ط، ١٩٨١م: ٤٧.
- (^{١٢}) العين: ١ / ٥٢.
- (^{١٣}) العين: ١ / ٥١-٥٢.
- (^{١٤}) العين: ١ / ٥٢.
- (^{١٥}) مباحث في علم اللغة واللسانيات، د. رشيد عبد الرحمن العبيدي، مطبعة دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط ١، ٢٠٠٢م: ٣٨٣-٣٨٤.
- (^{١٦}) ينظر: في البحث الصوتي عند العرب، د. خليل إبراهيم العطية، دار الجاحظ للنشر، بغداد، د. ط، ١٩٨٣م: ٥٣.
- (^{١٧}) العين: ١ / ٥٢.
- (^{١٨}) العين: ١ / ٥٢.
- (^{١٩}) العين: ١ / ٥٢.
- (^{٢٠}) مباحث في علم اللغة واللسانيات: ١٤١.
- (^{٢١}) في الأصل (كُنْ) ولعلَّ تصحيف وأنَّ الصواب ما أثبتناه في النص، ينظر: أصالة علم الأصوات: ٩٠.
- (^{٢٢}) العين: ١ / ٥٢.
- (^{٢٣}) دراسة الصوت اللغوي، د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، د. ط، ١٤١١هـ-١٩٩١م: ٣٩٨.
- (^{٢٤}) ينظر: الأصوات اللغوية، د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية-القاهرة، ط ٥، ١٩٧٥م: ١١٠.
- (^{٢٥}) العين: ١ / ٥٣.
- (^{٢٦}) أصالة علم الأصوات: ٥٧.
- (^{٢٧}) العين: ١ / ٥٣.
- (^{٢٨}) مقاييس اللغة: مادة (ط ل ق) ٥٣٦.
- (^{٢٩}) لسان العرب: مادة (ط ل ق) ١٠ / ٢٢٨ - ٢٢٩.
- (^{٣٠}) المصطلح الصوتي في الدراسات العربية، د. عبد العزيز الصبيغ، دار الفكر، دمشق، ط ١، ٢٠٠٠م: ١٧٢.
- (^{٣١}) سر صناعة الأعراب، أبو الفتح عثمان بن جني(٣٩٢هـ)، تحقيق: أحمد فريد أحمد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، د. ط، د. ت: ٧١/١.
- (^{٣٢}) معجم الصوتيات، د. رشيد عبد الرحمن العبيدي، مركز البحوث والدراسات الإسلامية، بغداد، ط ١، ٢٠٠٧م: ١١٩.
- (^{٣٣}) العين: ١ / ٥٤.
- (^{٣٤}) أصالة علم الأصوات: ٥٧.
- (^{٣٥}) ينظر: العين: ١ / ٥٢، وسر صناعة الإعراب: ١ / ٥٦، والأصوات اللغوية: ٨٧ - ٨٨.
- (^{٣٦}) ينظر: العين: ١ / ٥٣.
- (^{٣٧}) سر صناعة الإعراب: ٧١/١.
- (^{٣٨}) المصطلح الصوتي: ١٧١.
- (^{٣٩}) معجم الصوتيات: ١٤٣.

- (٤٠) الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة بعلم مراتب الحروف ومخارجها وصفاتها وأقابها، أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي (ت ٤٣٨هـ)، دراسة وتحقيق: أ. فرغلي سيد عريايي، مكتبة أولاد الشيخ للتراث، الجيزة، ط ١، ٢٠٠٩م: ٣٢٩.
- (٤١) العين: ١ / ٥٢.
- (٤٢) العين: ١ / ٥٧.
- (٤٣) سر صناعة الإعراب: ١ / ٧١.
- (٤٤) ينظر: سر صناعة الإعراب: ١ / ٧١.
- (٤٥) العين: ١ / ٥٣.
- (٤٦) العين: ١ / ٥٣-٥٤.
- (٤٧) ينظر: معجم المصطلح الصوتي عند علماء التجويد قاموس المصطلحات الصوتية العربية من خلال كتابات ابن الجزري المتوفى (٨٣٣هـ)، بلقاسم مكريني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠١٣م: ٣٢٠ - ٣٢١.
- (٤٨) سر صناعة الإعراب: ١ / ٧١.
- (٤٩) أصالة علم الأصوات: ٥٧.
- (٥٠) المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، د. رمضان عبد التواب، مطبعة المدني، القاهرة، ط ٢، ١٩٨٥م: ١١٢.
- (٥١) ينظر: الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني، د. حسام سعيد النعيمي، دار الرشيد للنشر، بغداد، ط ١، ١٩٨٠م: ١٩٨٠.
- (٥٢) فقه اللغة العربية، د. كاسد ياسر الزبيدي، جامعة الموصل، الموصل، د. ط، ١٩٨٧م: ٤٣.
- (٥٣) ينظر: الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢هـ)، تحقيق: محمد علي النجار، مطبعة دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط ٤، ١٩٩٠م: ١٤٧/٢.
- (٥٤) الخصائص: ١٥٤/٢.
- (٥٥) في الأصل: (والدال المتشابهتين)، والصواب ما أثبتناه، بناءً على نسخة أخرى للعين ذكرها د. أحمد محمد قدور، ينظر: أصالة علم الأصوات: ٩١.
- (٥٦) العين: ١ / ٥٤.
- (٥٧) العين: ١ / ٥٤.
- (٥٨) العين: ١ / ٥٤.
- (٥٩) الاعتياص أصله من العين والياء والصاد "أصلٌ صَحِيحٌ، وَهُوَ الْمُتَّبِتُ". مقاييس اللغة: مادة (عيص) ٦٢٧، فكأنَّ الخليل أنَّ هذا الصوت لا منبت له؛ لأنَّ صوت الهاء لا يعتمد على مخرجه كاعتماد بقيَّة الأصوات الحلقية، فلا يَنْقَلُ نطقه أو يُشكَل، و"اعتاص هذا الشيء إذا لم يُمكن. وكلام عَوِيصٌ". العين، مادة: العين والصاد ومعها (واي): ١٩٨/٢.
- (٦٠) العين: ١ / ٥٤.
- (٦١) العين: ١ / ٥٤.
- (٦٢) العين: ١ / ٥٤.
- (٦٣) العين: ١ / ٥٤.
- (٦٤) العين: ١ / ٥٦.
- (٦٥) العين: ١ / ٦٠.



- (٦٦) ينظر: العين: ٤٨/١، و٥١ - ٥٢، و٥٧-٥٨، و٥٨.
- (٦٧) ينظر: التفكير الصوتي عند الخليل، د. حلمي خليل، دار المعرفة، الإسكندرية، ط ١، ١٩٨٨ م: ٢٤.
- (٦٨) العين: ٤٧ /١.
- (٦٩) سر صناعة الإعراب: ١٩/١.
- (٧٠) العين: ٤٧ /١.
- (٧١) العين: ٤٩ /١.
- (٧٢) الكتاب: ٦٢ /٢.
- (٧٣) التفكير الصوتي عند الخليل: ١٥-١٦.
- (٧٤) في الأصل: (أحياناً) والصواب ما أثبتناه، ينظر: أصالة علم الأصوات، ٩٣.
- (٧٥) العين: ٥٧ /١.
- (٧٦) ينظر: الأصوات اللغوية: ٢٦، ودراسة الصوت اللغوي: ١٣٥، والتفكير الصوتي عند الخليل: ٣٨-٣٩.
- (٧٧) في البحث الصوتي عند العرب: ١٢.
- (٧٨) المصطلح الصوتي: ٢٣.
- (٧٩) العين: ٤٧/١.
- (٨٠) أصالة علم الأصوات: ٢٥.
- (٨١) في البحث الصوتي عند العرب: ١٦.
- (٨٢) العين: ٤٧/١.
- (٨٣) العين: ٥١/١.
- (٨٤) العين: ٥١/١.
- (٨٥) سر صناعة الإعراب: ١٩/١.
- (٨٦) ينظر: العين: ٥٧/١ - ٥٨، والتفكير الصوتي عند الخليل: ٢٥.